جولات تقريبية

المشرق العربي

الدكتور محمد علي آذرشب

أينما وجدت إثارةً من جهاد آل بيت رسول الله ﷺ وجدت المجتمع الّذي ينأىٰ عن الصغائر وعن الطائفيّة والنظرات الضيّقة، وينشدّ بفكره وعواطفه نحو آفاق الرسالة، فهٰذا البيت الكريم سجّل في صفحات التاريخ مواقف عظيمة، تجعل كلّ المسلمين بمختلف مذاهبهم مدينين إليه في كلّ ماورثوه من شخصيّة إسلاميّة.

إنّهم وأتباعهم والسائرون علىٰ طريقهم يشكّلون علىٰ مدىٰ التأريخ، أعلام هدىً، ومصابيحَ دجىٰ، وعروةً وثقىٰ صانت الدين من تلاعب المتلاعبين، وأهواء المنحرفين، ولذٰلك نجد المسلمين بكلّ مذاهبهم، بل وأئمة مذاهب المسلمين بأجمعهم يرون في آل بيت رسول الله ﷺ السنَدَ والملاذ والنجاة من الهلاك.

أقف في هٰذه الجولة بواحدة من بقاع آل محمّد، وهي «المغرب الأقصىٰ»، فلقد زرتها ثانية مع وفد تَرأَسّهُ الأمين العامّ لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وضمّ جمعاً من أعضاء المجمع بدعوةٍ كريمةٍ من علماء هٰذا الصقع، بل هٰذا الثغر الإسلاميّ الحبيب.

وجدت التحدّيات في هٰذا البلد كبيرة جدّاً.. فالمغرب لا يفصله عن الغرب إلّا ميم

مضيق جبل طارق، فهو أمام العداء السافر التأريخيّ والسياسيّ والإعلاميّ وجهاً لوجه. ولٰكنّ الإسلام فيه رغم كلّ ذٰلك بخير.. الروح الإسلاميّة تغمر الحياة المغربيّة، ويعيشها الإنسان المغربيّ بكلّ فئاته. وما أثارَ انتباهنا أكثر باعتبارنا وفداً تقريبيّاً، تعالي المغاربة عن كلّ اختلافٍ طائفيٍّ وحساسيّات مذهبيّة، رغم ما تلمّسنا من محاولات خارجيّةٍ لإثارة هٰذه الإختلافات والحسّاسيّات.

وحين تفحَّصنا الأمر وجدناه يعود إلىٰ ارتباط تأريخ هٰذا البلد بآل رسول الله. وهٰذه ظاهرة هامّة من ظواهر «التقريب» يحسن أن نقف عندها ولو قليلاً.

إدريس الأوّل في زرهون:

حينَ تتجّه إلىٰ مدينة «فاس» من «الرباط»، يستوقفك قبل الوصول إليها ضريح في بقعة جميلة مزدانة بالأشجار إسمها «زرهون»، إنّه ضريح إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب.

جاء إدريس إلىٰ المغرب يدعو المغاربة للإنضمام إلىٰ ثورة أخيه محمد المسمّىٰ «النفس الزّكيّة» في المدينة أيّام خلافة المنصور العبّاسيّ (١٤٥هـ)، فأجابه خلق من الناس[1].

والمُهم في هٰذا الداعية العلويّ، نداؤه الّذي وجّهه إلىٰ المغاربة يدعوهم فيه إلىٰ إقامة الإسلام كما جاء به رسول الله، بعيداً عن تحريف الحكّام الأمويّين والعبّاسيّين. ونرىٰ فيه روح التوحيد الخالص، والإسلام المحمّدي النقيّ.

وهو وثيقة «تقريبيّة» هامّة جدّاً، تعني فيما تعني أنّ مدرسة آل بيت رسول الله ليست طائفيّة ولا مذهبيّة، بل تنأىٰ عن كلّ ما يُفرّق صفوف المسلمين، وتتحدّث بلغة القرآن والسنّة لا غير.

ولأهميّة هٰذه الوثيقة الّتي نشرها أوّلَ مرة المرحوم الأُستاذ المجاهد «علّال

---

(١) أُنظر مروج الذهب، المسعوديّ ٣: ٢٩٤، الشافي ١: ١٤٢، الروض النضير ١: ٩٤، شذرات الذهب ٣: ١٥٩، مقاتل الطالبيين: ١٣٥، عيون الأخبار لابن قتيبة ١: ٢١٢، الحدائق الوردية ١: ٣١٨، مناقب الامام ابي حنيفة ١: ٢٥٥.

الفاسيّ» ننقلها بنصّها، ثُمّ نشير إلىٰ بعض ملاحظات علّال الفاسيّ بشأنها[1]:

الوثيقة التاريخيّة الهامّة»

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدُ لله الّذي جعل النصر لمن أطاعه، وعاقبة السوء لمن عَنَد عنه، ولا إله إلّا الله المتفرّد بالوحدانيّة، الدالّ علىٰ ذلك بما أظهر من عجيب حكمته، ولطف تدبيره، الّذي لا يدرك إلّا اعلامه.

وصلّىٰ الله علىٰ محمّدٍ عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، أحبّه واصطفاه، واختاره وارتضاه، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الطيّبين.

أمّا بعد، فإنّي:

١ ـ أدعوكم إلىٰ كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ.

٢ ـ وإلىٰ العدل في الرعيّة والقَسْم بالسّويّة، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم.

٣ ـ وإحياء السنّة وإماتة البدعة، ونفاذ حكم الكتاب علىٰ القريب والبعيد.

٤ ـ اذكروا الله في ملوك غَيَّروا، وللأيمان خَفَروا، وعهود الله وميثاقه نَقَضوا، ولبني بيته قتلوا.

٥ ـ وأُذَكِّرُكُم الله في ارامل احتقرت، وحدودٍ عطِّلت، وفي دماء بغير حقٍّ سفكت.

٦ ـ فقد نبذوا الكتاب والإسلام، فلم يَبْقَ من الإسلام إلّا إسمه، ولا من القرآن إلّا رسمه.

٧ ـ واعلموا عباد الله أنّ ممّا أوجب الله علىٰ أهل طاعته، المجاهرة لأهل عداوته ومعصيته، باليد وباللسان[2].

آ) فباللسان الدعاء إلىٰ الله بالموعظة الحسنة، والنصيحة، والحضّ علىٰ طاعة الله،

---

(١) ذكر الأُستاذ علّال الفاسيّ أنّ هٰذه الوثيقة أخذها من كتابٍ مخطوطٍ تحت عنوان «المرجع الشافي» لعبد الله بن حمزة من أئمّة اليمن، والكتاب موجود باليمن. ونحن نقلناها من كتاب «المغرب عبر التاريخ» لإبراهيم حركات ١: ١١٦ ـ ١١٩.

(٢) ننقل الوثيقة كما جاءت بترتيب الأُستاذ علّال الفاسيّ.

والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع، والنزوع عما يكرهه الله، والتواصي بالحقّ والصّدق، والصبر والرحمة والرفق، والتناهي عن معاصي الله كلِّها، والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله، حتّىٰ تنفذ بصائرهم وتكمل، وتجتمع كلمتهم وتنتظم.

ب) فإذا إجتمع منهم من يكون للفاسد دافعاً، وللظالمين مقاوماً، وعلىٰ البغي والعدوان قاهراً، أظهروا دعوتهم، وندبوا العباد إلىٰ طاعة ربِّهم، ودافعوا أهل الجور علىٰ ارتكاب ما حرّم الله عليهم، وحالُوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها، فإنّ في معصية الله تَلَفاً لمن ركبها، وإهلاكاً لمن عمل بها.

ج) ولا يُؤنسنّكم من علوّ الحقّ واضطهاده، قلّة أنصاره، فإنّ في ما بَدا من وحدة النَبيِّ ﷺ، والأنبياء الداعين إلىٰ الله قبله، وتكثيره إيّاهم بَعْدَ القِلَّة، واعزازهم بَعْدَ الذِلَّة، دليلاً بيِّناً، وبُرهاناً واضحاً. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولقد نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وأنتم أذِلَّة﴾[1]. وقال تعالىٰ: ﴿ولَيَنْصُرُنَّ الله من ينصُرُه، إنَّ الله لَقَوِيٌّ عزيزٌ﴾[2]. فَنَصر الله نبيّه وكَثَّرَ جُنْدَهُ وأَظهر حزبه، وأنجز وَعْدَه، جزاءاً من الله سبحانه، وثواباً لفضله وصبره، وإيثاره طاعة ربّه، ورأفته بعباده، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط، في تربية ومجاهدة أعدائهم، وزهده فيما زَهَّده فيهم، ورغبته فيما يريده الله، ومواساته أصحابه، وسعة أخلاقه كما أَدّبه الله، وأمر العباد باتّباعه، وسلوك سليم (كذا). والإقتداء لهدايته، واقتفاء أثره، فإذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أقدامَكم﴾[3].

قال تعالىٰ: ﴿إنّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَن الفَحْشاء والمُنْكَرِ والبَغي﴾[4].

وكما مدحهم وأثنىٰ عليهم كما يقول: ﴿كنتم خيرَ أُمّةٍ أُخرجت للناسِ تأمرونَ

---

(١) آل عمران: ١٢٣.
(٢) الحج: ٤٠.
(٣) محمد: ٧.
(٤) النحل: ٩٠.

بالمعروفِ وتنهوْنَ عن المنكرِ وتؤمنونَ باللهِ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾**[2].

د) وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأضافه إلىٰ الإيمان والإقرار لمعرفته، وأمر بالجهاد عليه، والدعاء إليه، قال تعالىٰ: **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُون باللهِ ولاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ، ولا يُحرِّمون ما حَرَّمَ الله ورسوله ولا يَدِينُونَ دِيْنَ الحقّ﴾**[3].

وفرض قتال المعاندين علىٰ الحقّ، والمعتدينَ عليه، وعلىٰ مَنْ آمن به، وصدَّق بكتابه، حتّىٰ يعود إليه ويفيء، كما فرض قتال من كفر به وصدّ عنه، حتّىٰ يؤمن به، ويعترف بشرائعه. قال تعالىٰ: **﴿وإنْ طائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنينَ اَقْتَتَلوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإنْ بَغَتْ إحْداهُمَا عَلىٰ الأُخْرىٰ فَقاتِلُوا الَّتي تَبْغي حَتّىٰ تَفِيءَ إلىٰ أمْرِ اللهِ فإنْ فاءَتْ فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالعَدْلِ وأَقْسِطُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطينْ﴾**[4].

هـ) فهٰذا عهد الله إليكم، وميثاقه عليكم بالتعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ، ولا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان، فرضاً من الله واجباً، وحكما لازماً، فأين عن الله تذهبون وأنّىٰ تؤفكون؟.

و) وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً، وأظهروا الفساد، وامتلأت الأرض ظلماً وجوراً، فليس للنّاس ملجأ، ولا لَهُمْ عند أعدائهم حسن رجاء.

فعسىٰ أن تكونوا معاشرَ إخواننا من البربر، اليد الحاصدة للظلم والجور، وأنصار الكتاب والسنَّة، القائمين بحقّ المظلومين، من ذرّية النّبيّين، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين، ونصر الله مع النّبيّين.

٨ ـ واعلموا معاشر البربر أنّي أتيتُكُمْ، وأنا المظلوم الملهوف الطريد الشريد، الخائف الموتور الّذي كثر واتره، وقلّ ناصره، وقُتل إخوته، وأبوه وجدّه، وأهلوه، فأجيبوا داعيَ الله، فقد دعاكم إلىٰ الله، فإنَّ الله عزّ وجلّ يقول: (ومن لا يُجِبْ داعيَ اللهِ

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) التوبة: ٧١.
(٣) التوبة: ٢٩.
(٤) الحجرات: ٩.

فليسَ بمُعجزٍ في الأرضِ وليسَ لهُ من دونه أولياء)[1].

أعاذنا الله وإيّاكم من الضلال، وهدانا وإيّاكم إلىٰ سبيل الرشاد.

٩ ـ وأنا إدريس بن عبد الله، بن الحسن، بن الحسن، بن عليّ بن أبي طالب، عمّ رسول الله ﷺ، ورسول الله وعليّ بن ابي طالب جدّاي، وحمزة سيّد الشهداء، وجعفر الطيّار في الجنّة عمّاي، وخديجة الصدّيقة، وفاطمة بنت أسد الشفيقة جَدَّتاي، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الحسين سيّد ذراري النَّبيّين أُمّاي، والحسن والحسين ابنا رسول الله ﷺ أبواي، ومحمَّد وإبراهيم أبناء عبد الله المهديّ والزكيّ أخواي.

١٠ ـ هٰذه دعوتي العادلة غير الجائرة، فمن أجابني فله مالي، وعليه ما عَلَيّ، وَمَنْ أبىٰ فحظَّه أخطأ، وسيرىٰ ذٰلك عالم الغيب والشهادة أنّي لم أسفك له دماً، ولا استحللتُ محرماً، ولا مالاً، وأستشهدك يا أكبر الشاهدين، وأستشهِدُ جبريل وميكائيل أنّي أوّل من أجاب وأناب.

فلبّيك، اللهمَّ لبّيك، مُزجي السحاب، وهازم الأحزاب، مُصَيّر الجبال سراباً، بعد أن كانت صمّاً صِلاباً.. أسألُك النصر لولد نبيّك، إنّك علىٰ كلّ شيء قدير، والسلام. وصلّىٰ الله علىٰ محمّد وآله وسلّم».

ملاحظات الأُستاذ علّال الفاسيّ:

الغريب أنّ الأُستاذ المجاهد بعد أنْ نشر الوثيقة استنتج منها أنَّ إدريس الأوّل ما كان شيعيّاً، بل إماما من أئمَّة السنّة، لما في خطبته من مفاهيم توحيديّة لا تشبه ما عند «المعتزلة»، ولأنَّ الإمام مالكاً بايع أخاه محمّداً، ومالك لا يبايع غير سنّيٍّ، ولأنّ العبّاسيّين لو علموا أنّ إدريس كان شيعيّاً لشنّعوا عليه في مؤامراتهم.

ومع تقديرنا الفائق للأُستاذ المجاهد المرحوم علّال، نرىٰ أنَّ كلامه هٰذا ينطلق من فهمٍ تأريخيٍّ غير صحيحٍ لمدرسة آل بيت رسول الله، أو سمِّها إنْ شئت (التشيُّع).

---

(١) الأحقاف: ٣٢.

ولو راجع الأُستاذ الفاسيُّ كتاب «نهج البلاغة» لرأىٰ أنّ إدريس يتحدّث عن صفات الله في ندائه كما يتحدث جَدّه عليٌّ عليه السلام، لا يسلك في ذٰلك نهج الأشاعرة ولا المعتزلة، فمدرسة آل البيت أعرق من هٰذه الإختلافات في الأُصول.

أمّا بيعة مالك لأخيه محمّد، فتدلُّ علىٰ أنَّ مالكاً وسائر فقهاء المدينة كانوا لا يؤمنون بشرعيّة الخلافة العبّاسيّة، ولا بصحَّة البيعة الّتي أُخِذَتْ من النّاس للخليفة العبّاسيّ، وإذا كان لابدّ من خليفةٍ، فهٰذا البيت العلويّ أحقُّ بها. والنّفس الزّكيّة سُمِّيَ بهٰذا الإسم لزهده ونسكه كما يقول المسعوديّ[1] وهو من سادات بني هاشم ورجالهم، فضلاً وشرفاً وديناً، وعلماً وشجاعة، وفصاحةً ورئاسة، وكرامةً ونُبْلاً، كما يقول ابن الطِّقْطَقيّ[2].

ومن هنا فإنّه حين أقبل أهالي المدينة علىٰ الإمام مالك بن أنس، يستفتونه في الخروج مع محمّد النفس الزكيّة، وقالوا له: إنَّ في أعناقنا بيعةً لأبي جعفر (المنصور). قال مالك لهم: إنّما بايعتم مكرهين وليس علىٰ مُكْرَهٍ يمين. وكذٰلك انضمَّ إلىٰ محمّد النفس الزكيّة محمّد بن عجلان، وكانت له حلقة في مسجد النّبيّ صلى الله عليه وآله يُفتي الناسَ فيها ويحدِّثهم، حتّىٰ إذا قامت الثورة شارك فيها. وانضَمَّ إليه أيضاً عبد الله بن جعفر بن مخرمة، وكان من أبرز علماء المدينة في الفقه والحديث والفتوىٰ[3].

والتأريخ يحدِّثنا عن مواقف أُخرىٰ لفقهاء المذاهب الإسلاميّة وقفوها مناصرين ومُؤيِّدين لثورات أهل البيت ولأئمَّة أهل البيت، ممّا يدلُّ علىٰ تسامي مدرسة أهل بيت رسول الله علىٰ الخلافات المذهبيّة، وأُستاذيّتها وأُبوَّتُها لكلِّ المسلمين.

ومن هنا ما كانت كلمة «أهل البيت» و«شيعة أهل البيت» مبغوضة لدىٰ المسلمين حتّىٰ يُشنِّع العبّاسيّون بها، علىٰ ادريس كما يقول الأُستاذ الفاسيّ، فالعبّاسيّون حصلوا

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢٩٥.

(٢) الفخريّ في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة: ١٤٨.

(٣) انظر: جهاد الشيعة، سيرة مختار الليثيّ: ١٣٠ ـ ١٣١.

علىٰ قاعدتهم الشعبيّة الواسعة، في ثورتهم علىٰ الأمويّين بهٰذه الشّعارات الشيعيّة، وكان شيعة أهل البيت لا يُمَثّلون فريقاً أمام أهل السنّة، بل يمثّلون في نظر المسلمين آنئذٍ الصفوة الطاهرة، الّتي تحمل الإسلام علماً وعملاً كما أراده الله لا كما أراده الأمويّون.

إدريس بن ادريس ـ في فاس ـ:

ما كانت بيعة المراكشيّين إدريس لمصلحة دنيويّة، فقد ظلّوا مُلتزمين بها رغم فضل ثورة أخيه، وتَعَرُّضهم لسخط العبّاسيّين. بل ظلّوا ملتزمين بها حتّىٰ بعد مماته. فحين تُوفي سنة (١٧ هجرية) كان ابنه جنيناً في بطن أُمّه «كنزة»، فظلّ المراكشيّون ينتظرون ولادته وترعرعه، حتّىٰ إذا ولد وحمل اسم أبيه (إدريس الثاني) بايعه أهل المغرب سنة ١٨٨ هجريّة. وكان من أعظم أعماله بناء مدينة «فاس». وفي عصره عُرف المغرب باسم الأدارسه فقيل: بلد إدريس بن إدريس[1].

وإذا كان إدريس كلّ المغرب في زمانه، فإنّ مدينة إدريس اليوم (فاس) هي مغربٌ مصغّر بكلّ تراثه الحضاريّ.

في أزقّتها وأبنيتها القديمة الّتي بقيت مصونةً من يد الدهر، تجد معالم حضاريّةً تعيدك إلىٰ القرنين الثاني والثالث الهجريّين.

في إحدىٰ تلك الأزقّة تجد باباً يزدحم الناس عليه، بين خارج وداخل، وحين تدخله تجد النّاس متحلّقين زرافات ووحداناً حول ضريح إدريس بن إدريس وفي الصحن المحيط بالضريح، يأتون للزّيارة من كلّ بلاد المغرب.

وفي زقاقٍ آخر تنفتح باب خشبيّة أثريّة قديمة علىٰ «جامعة القرويّين»، دخلناها فوجدنا الطلاب ملتفّين حول أساتذتهم، يقرأون العلوم الإسلاميّة والعصريّة بعد أن حفظوا القرآن قبل دخولهم الجامعة، وفي هٰذه الجامعة يدرس الطالب سبع سنوان مختلف ألوان المعرفة الّتي تؤهله للدعوة والإرشاد.

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢٩٦.

وهٰذه الجامعة تُعتبر أقدم جامعةٍ إسلاميّة في أفريقيا بنتها امرأة اسمها فاطمة بنت محمّد بن عبد الله الفهريّ سنة ٢٤٥ هجريّة. ثم توالىٰ عليها البناء، لتصبح اليوم أثراً عظيماً من آثار الحضارة الإسلاميّة.

المهدي بن تومرت في تين ملّ:

في سنة ٤٣ هجريّة استولىٰ المرابطون علىٰ المغرب، وكان الحكّام ضِعافاً، فـدبَّ الفساد في البلاد، وكثرت الخمور والمفاسد والموبقات.

وفي هٰذه الدولة الفاسدة ظهر مصلح من آل محمّد، هو أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن تومرت (وتومرت إسم بربريّ). ينتسب إلىٰ الحسن بن عليّ بن ابي طالب عليه السلام كـما يقول ابن خلّكان[1].

ولد سنة ٤٨٥ هجريّة في جبل السوس في أقصىٰ بلاد المغرب. ثم رحل إلىٰ المشرق لطلب العلم. وكان المشرق آنذاك قد تخلّص من مخلّفات العصر الأموي فكـراً وفـقهاً وعاطفةً، واتّجه نحو مدرسة أهل بيت رسول الله، وشاع هٰذا الإتّجاه بشكل خاصٍّ بـين العُرَفاء والمتصوّفة وفقهاء الشافعيّة في العراق وإيران.

في بغداد قضىٰ ثلاث سنوات في النظاميّة، ودرس فيها علىٰ الغزاليّ والكياهراسيّ، وفي مصر التقىٰ بالطرطوشيّ الفقيه، ثم التحق بطوس ونيسابور في خراسان شرقيّ إيران، حيث الفقهاء الشافعيّة الموالون لآل البيت. ويقول ابن خلّكان إنّه «اطّلع من علوم أهل البيت علىٰ كتاب يُسمّىٰ الجفر»، ومهما كانت صحّة الرواية فإنّـه من الواضح أنّ الرجل تَشَرّب بروح الإصلاح العلويّة الثائرة، وعاد إلىٰ بلاده وهو قد بنىٰ شخصيّته الإسلاميّة الّتي تأبىٰ الرضوخ للإنحراف والظلم. ويقول عنه ابن خلّكان أيضاً:

«كان ورعاً ناسكاً، متقشفا مخشوشناً، مخلولقاً كثير الأطراق، بسّاماً في وجـوه النّاس، مُقْبِلاً علىٰ العبادة، لا يصحبه من المتاع إلّا عصاً وركوة. وكان شجاعاً، فصيحاً في

(١) انظر ترجمته في وفيّات الأعيان، رقم ٦٨٨ في الجزء ٥: ٤٥ ـ ٥٥.

لسان العربيّ والمغربيّ، شديد الإنكار علىٰ الناس فيما يخالف الشرع»[١].

أوّل دخوله المغرب بعد عودته من المشرق كان في مدينة «المهديّة»، وبدأ فيها أوّلاً بكسر أواني الخمر وآلات الطرب، وتدريس علوم الدّين[٢].

وبعد سلسلة نشاطات دخل ابن تومرت وتلميذه عبد المؤمن مدينة «مراكش»، فقام هناك أيضاً بكسر أواني الخمر، واعتراض النساء السافرات وتـوبيخهنّ «وكـانت نساء المرابطين يسرن سافرات، وحدثت حادثة أدّت إلىٰ محاكمة ابن تومرت في بلاط عليّ بن يوسف، وهي اعتراض أُخت أمير المسلمين في موكبها من لدن ابن تومرت الّذي وبّخها علىٰ سفورها، وأسقطها عن راحلتها..»[٣].

ودخل ابن تومرت في مواجهة سياسة علنيّة مع السلطة، حين حشّد أنصاره في «تين ملّ»[٤]، وهي منطقة جبليّة تقع مغرب مـدينة «مـراكش»، واسـتطاع أنْ يُحـقّق انتصاراتٍ ساحقةٍ، مركّزاً علىٰ الإخلاص في عقيدة التوحيد، وعـلىٰ الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ أساس القرآن والسنّة، وعلىٰ الإعداد لظهور الامام المهديّ المنتظر. وقد جمع الأحاديث المرويّة بشأن ظهور المهديّ وأشاعها بين أتـباعه. وفي كـلّ هٰـذه الإتّجاهات الإصلاحيّة لابن تومرت يظهر فكر أهل البيت فيها واضحاً.

وينقل ابن خلّكان عن صاحب كتاب «المغرب في أخبار أهل المغرب» أنّه قال في حقّ ابن تومرت:

آثارُهُ تُنبيك عن أخبارِهِ ... حتّىٰ كأنّك بالعيانِ تَـراه

قدم في الثرىٰ، وهمّة في الثُريّا. ونفسٌ تَرىٰ إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المُحَيّا. أغفل المرابطون حلّه وربطه، حتّىٰ دبّ دبيب الفلق في الغَسَق، وترك في الدنيا دويّاً، أنشأ دولة لو شاهدها أبو مسلم لما كان لعزمه فيها بمسلم، وكان قوتُه من غزل أُخْتٍ له، رغيفاً

---

(١) وفيّات الأعيان ٥: ٤٦.

(٢) المغرب عبر التأريخ ١: ٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢٥١.

(٤) يضبطها ياقوت بثلاث لامات (تين ملّل): جبال بالمغرب بها قرىً ومزارع يسكنها البربـر، بـين أوّلهـا ومراكش ثلاثة فراسخ (معجم البلدان ٢: ٦٩).

في كلّ يوم بقليل من سمنٍ أو زيتٍ، ولم ينتقل عن هٰذا حين كثرت عليه الدنيا، ورأىٰ أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلىٰ كثرة ما غنموه، فأمر بضمّ ذٰلك جميعه وأحرقه، وقال: من كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلّا ما رأىٰ، ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله..»[1].

واشتدَّ به المرض سنة ٥٢٤ هجريّة، فتُوفي رحمه الله ودفن في جامع «تين ملّ»، وواصل الحركة والقيادة بعده تلميذه عبد المؤمن بن عليّ، الّذي فتح المغرب وشمال أفريقيا، وأوشك أن يفتح الأندلس لولا أن تُوفي سنة ٥٥٨ هجريّة. وبقيت الدولة الّتي أسَّسها ابن تومرت (دولة الموحِّدين) حتّىٰ سنة ٦٦٨ هجريّة.

علىٰ طاولة المحادثات مع علماء المغرب:

ذكرت أنَّ الزيارة التقريبيّة الأخيرة للمغرب الأقصىٰ كانت بدعوةٍ من علماء المغرب، وكان في استقبال الوفد بالمطار جمع من العلماء علىٰ رأسهم الأُستاذ الكبير الشيخ محمّد المكّيّ الناصريّ ﷺ. وفي يومي الخميس والجمعة (١٩ و ٢٠ جمادي الأُولىٰ ١٤١٤هـ) عقدت اجتماعات بين الجانبين حضرها من الجانب المغربيّ:

الشيخ محمد المكّيّ الناصريّ: رئيس المجلس العلميّ الإقليميّ لعاصمة المملكة والأمين العامّ لرابطة علماء المغرب.

عبد الوهاب التازيّ سعود: عميد جامعة القرويّين.

عباس الجراريّ: أُستاذ بكليّة الآداب بالرباط، عضو أكاديميّة المملكة المغربيّة.

إدريس العلويّ العبدلاويّ: عضو أكاديميّة المملكة المغربيّة.

شبيهنا حمداتي ماء العينين: عضوٌ بالديوان الملكيّ، عضو المجلس العلميّ بالعيون، رئيس غرفةٍ في المجلس الأعلىٰ، أُستاذٌ باحثٌ في الفقه المُقارَن.

محمد الكتّانيّ: قيدوم (عميد) كلّية الآداب بتطوان، عضو أكاديميّة المملكة المغربيّة.

محمّد يسف: قيدوم (عميد) كلّية الشريعة بفاس، أُستاذ التعليم العالي بدار

---

(١) ابن خلّكان ٥: ٥٤.

الحديث الحسنيّة.

عبد الكريم الداوديّ: نائب رئيس المجلس العلميّ، وأُستاذ بكليّة الشريعة بفاس.

محمّد الأزرق: مستشار بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، وأُستاذ كرسيّ الحديث بالرباط.

أحمد الغازي الحسينيّ: أُستاذٌ جامعيٌّ، ومدرِّسٌ في جامع القرويّين، ومن هيئة ركن المفتيّ.

حسن السايح: مدير قسم الحضارة الإسلاميّة بالإيسيسكو، أُستاذٌ جامعيٌّ.

محمّد حكم: قاضي التوثيق بالرباط، ومستشار المجلس الأعلىٰ سابقاً، وعضو المجلس العلميّ، وأُستاذ كرسيٌّ الفقه المالكيّ الآن.

كما حضرها من الجانب الإيرانيّ أصحاب الفضيلة السادة: الشيخ محمّد واعظ زادة الخراسانيّ الأمين العامّ للمجمع العالميّ للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

والمولىٰ إسحاق مدنيّ مستشار فخامة رئيس الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، عضو المجلس الأعلىٰ للمجمع.

والسيّد حسن ربّانيّ قائم مقام أمين المجمع.

والشيخ سلمان غفّاري مساعد الشؤون الدوليّة للمجمع.

والدكتور تبرائيان المسؤول عن تنظيم برامج «جامعة المذاهب الإسلاميّة».

والأُستاذ رضا رضائي عضو مجلس الشؤون الدوليّة للمجمع. وكاتب هٰذه السطور.

ذكريات الشيخ المكّيّ النصاريّ:

وفي بداية الجلسة تحدّث الشيخ المكّيّ الناصريّ، وهو علىٰ شيخوخته أطال الله عمره يتمتع بذاكرة قويّة، وقدرة فائقة علىٰ إدارة الجلسات بحكمة واتّزان، ومنطق قويٍّ في الحجّة، ونطقٍ عربيٍّ في صوت مفعم بالرخامة والهدوء والسيطرة. وحَلَّق بنا في حديثه إلىٰ ذكرياتٍ تقريبيّة قديمةٍ تعود إلىٰ سنة (١٣٥٠ هجرية)، ففي تلك السنة انعقد مؤتمر

القدس برآسة الشيخ أمين الحسينيّ، وشارك هو فيه من المغرب، وشارك فيه من إيران سيِّد ضياء الدين الطباطبائيّ (طبعاً شارك في هٰذا المؤتمر علماء آخرون من إيران لم يذكر الشيخ الناصريّ أسماءهم).

كما اشترك من علماء الشيعة في هٰذا المؤتمر العلّامة محمّد حسين كاشف الغطاء. وتحدّث الشيخ الناصريّ عن الجوّ الإسلاميّ التقريبيّ الّذي ساد المؤتمر، وتحدّث عن بهجته وسروره حين رأىٰ صفوف المؤتمرين سنّة وشيعة وقفوا لأداء الصلاة خلف عالمٍ مجتهدٍ شيعيٍّ هو الشيخ كاشف الغطاء.

ثُمَّ تحدّث لنا عن تاريخ المغرب المرتبط بحبّ آل البيت، ومواقف المغاربة في نصرة أهل البيت، وهو حديث تَلَمَّسنا مصاديقه في تراث المغرب المشهود، وفي الخلق المغربيّ في السوق والشارع والمسجد والجامعة.

وخلال يومين من الأحاديث الودّية تناول المجتمعون الموضوعات التالية كما جاء في البيان المشترك:

١) التذكير بواقع المسلمين اليوم وما يعانونه من تكالب كلِّ قوىٰ الشّر عليهم، ممّا يُحتِّمُ عليهم نَبْذَ المجابهات فيما بينهم، والتخلّي عن أيّ عملٍ من شأنه أن يُعرِّضَ أمن المسلمين وقوّتهم واستقرار مجتمعاتهم للخطر.

٢) ألَحَّ المتدخِّلون علىٰ ضرورة إبراز جميع القواسم الإسلاميّة المشتركة، والّتي تُشَكِّل إجماعاً بين مختلف المذاهب، وخصوصاً أهل السنَّة وإخوانهم الشيعة، ليقع التذاكر فيها، والعمل علىٰ الإستفادة منها لتكريس التقارب الإسلاميّ، وتوطيد التعاون بين جميع المسلمين، علىٰ أنّ هٰذه اللقاءات والحوارات ستبقىٰ تحترم اعتناق أيِّ بلدٍ للمذهب الّذي يختار.

٣) إحترام كلِّ طرفٍ لما عند الطرف الآخر من المُعْتَقَد والتطبيق والمذهب.

٤) توجيه الدعوة أساساً لغير المسلمين، وترك الحريّة لكلّ بلدٍ في الطريقة الّتي يَتَّبِعُ للدعوة الإسلاميّة داخل حدوده.

٥) العمل علىٰ جعل المسلمين روّاد إسلام وقيم حضاريّةٍ كفيلةٍ باستمالة غير

المسلمين للإسلام، وقطع الطريق في وجه كلّ تَحرُّكٍ يُسِيءُ إلىٰ الإسلام أو يشوِّه سمعته.

٦) قبول التعاون والتواصل بين السنَّة والشيعة، حتىٰ نزيح كلَّ الدسائس الّتي يُسَرِّبُها أعداء الإسلام داخل صفوف المسلمين، وضرورة التساكن والحوار المخلص الصادق الّذي كان هو سلوك السلف الصالح واتِّباع ذلك في أمن وأمان.

٧) إعداد كلّ فريق لورقة عمل خلال فترةٍ زمنيّةٍ كافية لإتمام ذلك، ثم يقع الإتّصال من جديد، لتجتمع هٰذه اللجنة المشتركة، فتستخرج من تلك الورقتين برنامج عمل يكون موضوع ندواتٍ ولقاءاتٍ قادمة.

٨) إستنباط السلوك الصالح كمنهج يحتِّم التمسُّك بالقرآن والسنّة، واحترام أمن المسلمين في كلّ مكان، والكفّ عن أيّ قولٍ أو عملٍ يَمسُّ من حرمة المذاهب والفرق سواء منها السنّية والشيعيّة.

وبعد انتهاءِ الجلسات كان للوفد الإيرانيّ جولات في المغرب مليئة بالعطاء، توفّرت له خلالها كلّ وسائل الراحة والتسهيل في الإقامة والتَنَقُّل والزيارات واللقاءات، زار خلالها المعالم العلميّة والأثريّة والتراثيّة الإسلاميّة في مدن: الرباط، ومراكش، الدار البيضاء، وفاس وطنجة. فالتقىٰ بعلماء المدن، وزار المساجد والمكتبات والمراكز الثقافيّة. وزار فيما زار جامعة القرويّين، ودار الحديث الحسنيّة، وكلّية الشريعة بفاس، ومسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، ومركز الأسسكو في الرباط، وكان له مع الأساتذة والعلماء والعاملين في هٰذه المراكز العلميّة والثقافيّة أحاديث تقريبيّة مفيدة مثمرة.